الهيرمينوطيقا أو فن التأويل:

تمهيد:

لقد كان التأويل من وقت مضى قبل فترة القرن العشرين، يصب جل اهتماماته حول تفسير النصوص الدينية المقدسة لكن بعد المنعطف الذي حصل في هذا المبحث أصبح يأخذ دورا مغايرا في عملية المعرفة غذ برز كاتجاه فلسفي يسعى لفهم النصوص والخطابات بغية بلوغ الحقيقة التي تحتويها بداخلها، ولذلك أصبحنا نتكلم عن نظريات جديدة تظهر في مجال هذا المبحث الفلسفي، وأكثر من ذلك الكثير من الأزمات التي حلت في الفكر الغربي المعاصر أو الحضارة الغربية المعاصرة اعترفت بأن الحلول يمكن ان تأتي من العملية التأويلية لأنه من خلالها يستطيع الإنسان أ يعرف حقيقة وجودة وكينونته وتموقعه في التاريخ.[1]

أ_ في معنى التأويل:

التأويل أو التأويلية herméneutique اشتقت من الكلمة اليونانية hermeneuein بداية كانت تعني تأويل النصوص بما في ذلك النصوص الدينية المقدسة وهدفها هو تحديد المعنى المبهم والخفي في هذه النصوص بعدما كان غير مصرح به، فيما بعد تحولت مهمة هذا الاتجاه في الفكر الفلسفي على تبيان معنى النصوص حتى في جميع المجالات الأخرى وبذلك أصبحت تعني التأويلية هي مجموعة من القواعد والإجراءات التي يجب أن تتوفر لكي نعتمدها في قراءة وفحص نص من النصوص بطريقة معقولية سليمة وهذا لا يعني التنبؤ أو التكهن بل هو علم بالنصوص قصد تبيان المعنى الكامن بداخلها.

نحتاج للتأويل عندما تكون الحقيقة ليست واضحة في نص من النصوص يعني ذلك الكشف عن المعنى مما هو لا معنى ولهذا فالتأويل هو طريق نحو الحقيقة ومن هنا فالتأويل هو شكل من أشكال الحقيقة، والتأويل لا يكون هكذا بطريقة عشوائية بل ينبغي تحديد الموضوع المراد تأويله حتى يكون هذا الموضوع قابلا للتأويل، وكل المجالات المعرفية اليوم هي بحاجة إلى التأويل الواقع كله يحتاج إلى التأويل وما يوجود اليوم في تاريخ الفكر الفلسفي الغربي هو تأويلات للنصوص كانت ربما في الماضي لذلك يقول **نتشه:**" لا وجود لوقائع، هنالك فقط تأويلات" [1]

1_ هانز جورج غادامير (1900_ 2002):

---

[1] _ مارك لوني، مدخل إلى الفلسفة المعاصرة، المرجع السابق، ص 139.

[1] _مارك لوني، مدخل إلى الفلسفة المعاصرة، المرجع السابق، ص 140.

ولد غادامير في مدينة ماربورغ تلقى التعليم على يد أساتذته هوسرل وهيدغر، في فرايبورغ اتم مشروعه في الدكتوراه تحت إشراف الفيلسوف الألماني مارتن هيدغر عام 1929 تأثر بفكره وفلسته كثيرا كان تلميذا وفيا ومخلصا له، كان يدافع عنه أمام منتقديه، شغل منصب أستاذ التعليم العالي في جامعة فرانكفورت بألمانيا ثم في جامعة هيدلبرغ منذ عام 1949، ينتمي غادامير إلى مدرسة تأويلية ألمانية بدأت مع مؤسسيها الأوائل خاصة مع **شلاير ماخر** (1768_ 1834) والتي كانت مهمتها هي معرفة الابداع عند المؤلف سواء في النص، أو العمل الفني أي الوصول إلى اللحظة الداخلية العميقة التي هي بداخله عندما يكون بصدد تأليف أو إنتاج عمل فني، أي بمعنى محاول للكشف عن داخلية المؤلف أكثر من المؤلف في حد ذاته، وللتأويل عنده منهجية محكمة خاصة به لها قواعد قائمة بذاتها تطبق على كل التراث الإنساني.

بالإضافة إلى ذلك نجد **فلهليم ديلتاي** (1833_ 1911) فتح المجال أمام الطرح الحديث لمسألة التأويل وفلسفته تتمثل في دراسة طبيعة ومنهج علوم الروح او مجال العلوم الإنسانية التي هي في أوجها في نهاية القرن التاسع عشر ومن بين أهم أعماله نجد " **مدخل إلى علوم الروح**" ميز فيه بين العلوم الطبيعية التي تحاج إلى التفسير وعلوم الروح التي تحتاج إلى الفهم.

أسس هانز جورج غادامير مدرسة التأويل الفلسفية، والتي تُعنى بفهم النصوص والظواهر الإنسانية. وركز غادامير على ضرورة أن يتجنب التفسير العشوائية والقيود الناتجة عن العادات العقلية، مشددًا على أهمية التركيز على النصوص ذاتها وعلى الموضوعات التي تتناولها. وأكد أن عملية الفهم تبدأ دائمًا من خلال مشروع أو فكرة مبدئية يمتلكها القارئ حول النص. ومع التعمق في القراءة، يتم تعديل هذه الفكرة أو إعادة صياغتها، مما يؤدي إما إلى تأكيد الافتراضات أو تغييرها.

أوضح غادامير أن هذه العملية لا تنتهي أبدًا، ما يعني أنه لا يمكن الوصول إلى تفسير قاطع أو نهائي لأي نص أو موضوع. واعتبر أن الفهم البشري عملية ديناميكية مستمرة، تتأثر بالسياق التاريخي والثقافي، وتُعيد تشكيل نفسها باستمرار مع التفاعل مع النصوص.

يمثل كتابه الأشهر **الحقيقة والمنهج** الإطار الأساسي لمشروعه الفلسفي، حيث تناول فيه العلاقة الوثيقة بين الحقيقة والمنهج. بالنسبة غادامير، لا يمكن فصل الحقيقة عن المنهج، إذ يشكلان معًا أساس الفهم البشري. كان ناقدًا كبيرًا للمناهج التي كانت تُستخدم في العلوم الإنسانية، سواء الحديثة أو التقليدية.

انتقد المناهج الحديثة التي حاولت تطبيق المنهج العلمي الصارم على العلوم الإنسانية، معتبرًا أن هذه المحاولات تقلل من خصوصية الفهم الإنساني وتختزله في أدوات مادية. كما انتقد النهج التقليدي

للإنسانيات، خصوصًا أفكار فلهلم دلتاي، الذي ركز على ضرورة الكشف عن المقصد الأصلي للمؤلف لفهم النصوص. بالنسبة لجادامير، الفهم لا يقتصر على استرجاع نوايا المؤلف، بل هو عملية حوار مستمر بين النص والقارئ تتجاوز الحدود الزمنية والثقافية.

كان مشروع غادامير في التأويل الفلسفي يهدف إلى إبراز طبيعة الفهم البشري كعملية منهجية متأصلة في الوجود الإنساني، حيث يتفاعل القارئ مع النصوص باستمرار في إطار تاريخي وثقافي متغير، ما يجعل الفهم عملية غنية ومعقدة، ولكنها مفتوحة بلا حدود.

مؤلفاته:

- الأخلاق الديناليكتكية عند أفلاطون، 1931.
- أفلاطون والشعراء، 1934.
- الشعب والتاريخ في تفكير هيردر، 1942.
- باخ وفيمار، 1946.
- غوته والفلسفة، 1947.
- في أوّليّة الفلسفة، 1948.
- في المجرى الروحي للإنسان، 1949.
- الحقيقة والمنهج، ملامح تفسير الفلسفي، 1960.
- التفسير والنزعة التاريخيّة/التفسير الفلسفي، 1963.
- الديالكتيك والسفسطة في رسالة أفلاطون السابعة.

1_ غادامير التأويل، الفهم:

تعنى التأويلية بوصفها مجالا فلسفيا بفهم النصوص وتأويلها، وقد بدأت جذورها الأولى في الفكر الإغريقي، لكن التحولات المنهجية الكبرى التي سمحت بتأويل الأناجيل لم تتبلور إلا مع حركة الإصلاح الديني وتمردها على سلطة الكنيسة. لذلك بقيت التأويليّة طويلًا مرتبطة بعلم اللاهوت وبتفسير الكتب المقدّسة، قبل أن تتسع لاحقًا لتشمل أشكال التعبير اللغوية وغير اللغوية، أي الكلام والسلوك على حدّ سواء.

وقد شكّل القانون ميدانا مهما لتطبيق تأويليّة غادامير، إذ استفاد من هذا الحقل لتوضيح مشروعه في التأويل ما بعد الرومانسي، القائم على تجاوز المحاولات المنهجية التي تسعى إلى القبض على نية المؤلف – أو بالأحرى النية التشريعية سواء عن طريق القراءة الحرفية أو عبر أعراف الخطاب. وممّا يستحق التنويه أنّ تطوّر تأويلية غادامير جاء موازيا لتطور تأويل أستاذه هايدغر، الذي كان غادامير وارثا مباشرا لمشروعه. فمثلما قدّم هايدغر مفهوم الحكمة العملية phronesis بوصفها شكلًا من أشكال المعرفة المتجذّرة في وجودنا الفعلي في العالم، اعتمد غادامير فكرة "الإلقاء" في العالم (thrownness) ليبيّن استحالة فصل الفهم عن الوضعية التاريخية التي ننتمي إليها. كما أنّ منهجه الحواريّ الذي صوغه لاحقًا تحت مفهوم انصهار الآفاق يمثل استمرارا صريحًا للمسار الهايدغري. لذلك لم يسع غادامير إلى صياغة طريقة ثابتة للتأويل، بل انشغل بتوضيح الشروط التي تجعل كل تأويل ممكنا[1].

يصرح غادامير بأن الفهم في جوهره ذو بعد تاريخي. ومن هذا المنطلق رفض القراءات المحايدة أو المتعالية للنصوص القانونية، معتبرًا أن المعنى يتأسس بطريقة بين ذاتية تنبني على ثلاثة أبعاد: وجودي وجدلي ونقدي. يتصل البعد الوجودي برؤية غادامير للحقيقة بوصفها لا تقوم على المنهج وحده، وللإنسان بوصفه كائنًا تأويليا في الأساس. وهنا يستدعي غادامير تاريخية هايدغر، حيث يكون الوجود في العالم هو البنية المسبقة للدازاين. فنحن نوجد في عالم تشكل سياقاته أفق رؤيتنا، وتقيّد خيالنا وتوجّه خياراتنا. إن تأويل الماضي الملقى علينا هو ما يصنع إمكانية استجابتنا له. فالقضية ليست في كيفية فهم الوجود، بل في كون الفهم ذاته ضربا من الوجود. بهذا المعنى يصبح التأويل أرضية مشتركة يتفاعل من خلالها النص والمؤوِّل، ويغدو ارتباطهما ارتباطا وجوديا لا يمكن فصله.

التأويل ليس نشاطا خارجيا نمارسه، بل هو طريقة وجودنا ولذلك فإن التفكير في طرق التأويل كما فعل الرومانسيون يغفل النقطة الأساسية ففهم النص ليس عملية تبدأ من صفحة بيضاء كما افترض العقل الديكارتي، ولا فعلًا يخضع لقوالب متعالية كما عند كانط، بل هو فعل مشروط بأفق القارئ، أي بمجال الرؤية المتاح من زاويته وهذا ما يرتبط عند غادامير بمفهوم تاريخ التأثير، حيث تُسقَط على النص مفاهيم وتقاليد العالم الذي نُوجد فيه ومن ثم يفهم الفعل القضائي بوصفه خاضعا هو الآخر لوعي تاريخي فعال يشكل القاضي من خلال استغراقه داخل هذا التاريخ وتأثره به.

---

[1] _ تانزل تشودري، **هانز جورج غادامير، التأويلية**، ترجمة: زينب عبد المطلب، فقه تدبير المعرفة، 2022، https://atharah.net/hans-georg-gadamer-hermeneutics/

أما البعد الجدلي للتأويل فيشير إلى الحركة المستمرة بين أفق المؤول وأفق النص فالمعنى لا ينتقل من النص إلى القارئ بشكل مباشر أو ميكانيكي، بل يتطلب انخراطا وحوارا إن اختبار النص واستكشافه يُجبر المؤول على مواجهة أفقه الخاص، إذ إن الانفتاح على النص يقتضي استعدادًا لتحدّي الأفكار المسبقة وقبول إمكانية الخطأ. ويجري جزءٌ مهم من هذا الانفتاح من خلال مواجهة الماضي وفهم التقليد الذي يُنتج الأفق الذي يتحرك فيه المؤوّل. ومن خلال هذه الحركة الجدلية بين الذات والنص يتحقق صهر الآفاق أي تقاطع تاريخ المؤوِّل مع تاريخ النص بطريقة تعيد تشكيل المعنى وتفتحه على إمكانات جديدة. ولهذا يغدو التفسير القانوني تطبيقًا حيًا للحوار التأويلي، حيث لا يبحث القاضي عن نية غامضة للمؤلف بقدر ما يختبر أحكامه المسبقة ويضعها موضع مساءلة من أجل بلوغ المعنى الأنسب.

ويظهر البعد النقدي للتأويل في قدرة المؤول على مساءلة النص ذاته، وتحديد ما إذا كانت افتراضاته ما تزال قابلة للتبرير أو أصبحت متجاوزة تاريخيًا. وفي المقابل تساعد الخبرة المؤوِّل على إعادة النظر في أحكامه المسبقة، والتمييز بين ما يدعم عملية الفهم وما يشوشها. وعلى هذا الأساس يصبح معنى النص القانوني معنى ديناميا، يتغير بتغير السياقات وباختلاف الأفق الذي يُقرأ فيه. ولعل هذا الجانب النقدي هو ما يفسر القدرة التأويلية على فهم تحوّل السوابق القضائية ففي قضية براون ضد مجلس التعليم مثلًا، تم تجاوز حكم بليسي ضد فيرغسون رغم استنادهما إلى النص الدستوري نفسه، لأن الفهم الجديد واجه الأحكام المسبقة التي كانت تُشرعن الفصل العنصري. وقد أظهرت مداولات القاضي وارن إدراكه بأن الحفاظ على السابقة يعني الإبقاء على تصورٍ عنصري عن دونية الأمريكيين الأفارقة، وهو ما يكشف قصور التأويل الرومانسي الذي يزعم الوصول إلى معنى ثابت أو متعال.

قبل غادامير، كانت التأويلية تطمح إلى محاكاة العلوم الطبيعية عبر البحث عن معنى واحد دائم للنصوص. غير أن غادامير كشف أن وضعيتنا التاريخية لا تسمح بمثل هذا الادعاء، وأن السؤال الأهم ليس: ما هو المعنى النهائي للنص؟ بل: ما الذي يجعل الفهم ممكنًا؟ ولهذا تبدو الممارسة القضائية بطبيعتها ممارسة تأويلية، لا مجرد تطبيق آلي للنصوص وقد تباينت مواقف الباحثين من توظيف غادامير للتأويل القانوني بين من رأى فيه تفسيرا دقيقا للفهم القضائي، ومن بقي متحفظا، ومن اعتبر أن قدراته لم تستثمر بعد بصورة كافية.

ويبقى الأهم عند غادامير أنّ عدم إدراك إلقائنا الأولي داخل التقاليد التي تصنع وعينا هو ما يجعل الفكر التنويري ينتقل من حكم مسبق إلى حكم مسبق آخر دون وعي نقدي. ومن ثم فالتأويلية الغادامیرية ليست نفيا للمعنى، بل وعيا بشروطه وحدوده وتاريخه الفعال.